إضاءة

في هجران المعاجم العربية الحديثة للشواهد الأدبية

ولمٌ قديم بات منسيّاً

بينما كان العرب القدماء يولون أهمّية إلى «معاجم المعاني»، أي تلك الكتب الزاخرة بالشواهد والمختارات حول محورٍ معيّن، فإنّ هذا التوجّه يظلّ غائباً في العصر الحديث. بل إن آلية الاستشهاد تكاد تكون غائبة حتى عن المعاجم العامّة اليوم

نجم الدين خلف الله

نلاحظ مُفارقة لافتة بين ازدهار معاجم الشّواهد والمُختارات في كُتب القدماء، وبين غياب هذا الصنف من التأليف في النّتاج الألسني - الثقافي العربيّ في عصرنا. فقد كان مأثورُ الكلام يُجمَع في موسوعاتٍ ويُرتَّب إمّا بحسب موضوعاته ومعانيه أو بحسب أبنيته وقوافيه، وأحيانًا حسب الحرف الأول منه، وقد يعقبه ذكرُ لقائله والتذكير بمناسبات صياغته بالإضافة إلى بيان البَحر العروضي وشرح الغريب، ممّا يجعل من هذه المأثورات مكوّنًا رئيسًا في الهويّة الجماليّة لدى العرب وفي مَنظومة القِيَم الأخلاقيّة لديهم.

فقد كان هؤلاء القدماء يُخصّصون معاجمَ كاملة يُطلقون عليها: «معاجمَ المعاني»، وتدلّ هذه الكلمة الغامضة هنا على المحور الفكريّ أو «الثيمة»، بلغة عصرنا بما هي تعريبٌ للمُصطلح الفرنسيّ Thématique، حيث كانوا يحشدون فيها الأبيات من الشّعر، وربّما جُمَلًا من بديع النّثر الفني، التي تجسّد قِيَم الجَماعة. وأشهر الأمثلة على ذلك «كتاب المَعاني الكبير في أبيات المعاني» لابن قتيبة الدينوري (828 - 889) وكتاب «الأمثال» لابن سَلّام الجُمحيّ (756 - 845)، ويدخل في هذا الضّرب كتبُ المُختارات مثل «الأصمعيات» للأصمعي (740 - 828) و«ديوان الحماسة» لأبي تمّام وغيرها كثيرٌ.

وتختار هذه الشواهد، عمومًا، من العصر الجاهلي وصدر الإسلام الذي يُعدّ المرجع الأساسي في تحديد فَصاحة الكلمات شكليًا، والتجسيد الأمثل لجماليتها أسلوبيًا، ولسَلامة معانيها مضمونيًا. وهذا هو الثالوث اللفظي - المعنويّ - القِيَمي الذي صَدر عنه عُلماء البَلاغة واللّغة وحتى الفَلاسفة الأقدمون في اختياراتهم من أجل توضيح معايير الإنتاج الفني، فضلًا عن المبادئ العُليا التي تَحكم الأمّة. ولذلك استمرّت هذه الكُتب والمختارات حيّةً في ضمائرها، يَتجدّد التذكير بها في انتظامٍ إلى أن انبلج فجرُ الحداثة.

ففي العصر الحديث، تنوّع التعامل مع هذا الإرث الثّريّ من الشواهد بعد أن صارت تطرح إشكالًا أدبيًا وفلسفيًا عميقًا بسبب نسبيّة القِيَم وجدالات التجدّد والتقادم. فمن جهةٍ أولى دَرَجت بعض المعاجم والخطابات الأخرى، بما فيها السّياسيّ، على إعادة إنتاج هذه الشواهد وإيرادها طيّها. إلّا أنّ هذا التمشّي يُغفل التطوّر الحتميّ للّغة وتغيّر معايير فَصاحتها وإطلاق معانيها، فضلًا عن التحوّلات العميقة التي طاولت منظومة القِيَم التي باتت تحكم مجتمعاتنا المعاصرة، حيث تأكّد الانتقال من النموذج القبليّ - الدّيني إلى نموذج أقرب إلى الوَضعيّة الكون (Positivisme universel).

واللافت أيضًا أنّ آلية الاستشهاد في حدّ ذاتها هي التي غابت في معاجمنا المعاصرة، فلا نكادُ نعثر عن شواهدَ لاستخدام المُفردات المُولّدة، سواء كان التوليد في الشكل أو المضمون، كما لو أنها لا تتوفّر على شرعيّة التمثيل على سلامة المُفردة ومقبوليّتها، فلا نعثر - مثلًا - على شواهد استخدام السّاسة العرب المُعاصرين لكلمات وعباراتٍ بعيْنها. وقد يبرّر هذا الغياب بضعف الملَكة الخطابيّة لسياسيّي العالم العربي، باستثناء طفَرات تعبيريّة نادرة يمكن أن تذهب مثلًا ككلمة «علوج» في فم سعيد الصّحّاف، وزير الإعلام العراقي السابق، أو فلتَات القذّافي ونوادر الحبيب بورقيبة، دون أن ننسى لَقطات الحَسن الثاني في خطاباته المُرتجلة... فالقضيّة تتعلّق بالاستعمال الرشيق فيما يصوغه هؤلاء السّاسة الذي يصلح أن يكون أمثلة على الكلام وشهادة عبور له من أجل أن تدمج في المعاجم وتتحصل على شهادة «المواطنة». وفي مقابل هذا الغياب، نجد أن معاجم الشواهد الفرنسيّة خصّصت حيّزًا كبيرًا للمقولات السياسيّة وبعضها الأخرى للكلمات الساخرة من المرأة والمجتمع والمعارضة... مثل «معجم الشواهد السياسية» لداميان بيغوك، الذي جمع فيه أكثر 1600 مثل سائر للسّاسة الفرنسيين من أجل مدّ المتكلّمين بما يُزيّن كلامَهم. وهذه هي وظيفة الشاهد الأولى: الإقناع والترصيع والتّدليل على صدقيّة الرأي ومتانته.

إلّا أن قيمة الشواهد لا تتوقّف على هذه الوظيفة التزيينيّة للكلام، وإنما تتعداها إلى كونها المرآة العاكسة للهُويّة الجماليّة لمستعملي اللغة في فترة من فترات تاريخهم، تَعكس المَقاييس اللغويّة التي يتطلّعون إليها والقِيَم المجتمعيّة التي يودّون أن تضبط رؤيتَهم للكون، ذلك أنّ بنيّة الشواهد لا تختلف عن الحِكم والأمثال السائرة التي طالما غمرت كتب النقد القديمة لأنها تصوّر عبقرية الذهن/ الكلام اللذيْن يلتقطان نقطة حاسمة فيُعبّران عنها بما يذهب مثلًا وشاهدًا. ومن جهة ثانية، هناك من صُنّاع المعاجم الحديثة مَن اختار حلاً جذريًا، منذ عصر النهضة، يتمثّل في حَذف الشواهد تمامًا من شرح المداخل اللّغويّة، باعتبارها تثقل هذه الشرح أولًا، ثم لأنّ الذائقة الحديثة لم تعد تَستسيغها ثانيًا، أو بالنظر إلى اعتبارها ذاتَ طابع دينيّ، حيث ترسّخت القناعة لقرون بأنّ النّص القرآني هو نموذج الفصاحة وعنوانُها، مع اختلافٍ في حُجّية فصاحة الحديث النبوي. وهذا ما قام به، على سبيل المثال، بُطرس البستاني في «مُحيط المحيط» (1867).

كما نلحظ عزوفًا واضحًا عن اعتبار الأدباء المُحدثين مرجعًا يُستدلّ بكلامهم وتُجمَع منه الشواهد. الاستثناء الوحيد كان في حلّ وَسَطٍ نَحى إليه مُعجم «القاموس الجديد للطلّاب» (1985) للجيلاني بلحاج يحيى وزملائه، الذين ضمّنوا فيه أبياتًا لأدباء تونسيين معاصرين مثل أبي القاسم الشابي والبَشير خُرَيّف، فضلًا عن إيراد العديد من الشواهد القديمة بإيعازٍ من الأديب التونسي محمود حاسمة فيُعبّران عنها بما يذهب مثلًا وشاهدًا. ومن جهة ثانية، هناك من صُنّاع المعاجم الحديثة مَن اختار حلاً جذريًا، منذ عصر النهضة، يتمثّل في حَذف الشواهد تمامًا من شرح المداخل اللّغويّة، باعتبارها تثقل هذه الشرح أولًا، ثم لأنّ الذائقة الحديثة لم تعد تَستسيغها ثانيًا، أو بالنظر إلى اعتبارها ذاتَ طابع دينيّ، حيث ترسّخت القناعة لقرون بأنّ النّص القرآني هو نموذج الفصاحة وعنوانُها، مع اختلافٍ في حُجّية فصاحة الحديث النبوي. وهذا ما قام به، على سبيل المثال، بُطرس البستاني في «مُحيط المحيط» (1867).

كما نلحظ عزوفًا واضحًا عن اعتبار الأدباء المُحدثين مرجعًا يُستدلّ بكلامهم وتُجمَع منه الشواهد. الاستثناء الوحيد كان في حلّ وَسَطٍ نَحى إليه مُعجم «القاموس الجديد للطلّاب» (1985) للجيلاني بلحاج يحيى وزملائه، الذين ضمّنوا فيه أبياتًا لأدباء تونسيين معاصرين مثل أبي القاسم الشابي والبَشير خُرَيّف، فضلًا عن إيراد العديد من الشواهد القديمة بإيعازٍ من الأديب التونسي محمود المسعدي الذي قدّم لهذا المُعجم بعد أن التَمس من القائمين عليه، في منتصف مرحلة تأليفه، إضافة شواهدَ من أجل تمكين الناشئة من الاطلاع على غُررها وفرائدها والتشبّع بما فيها من جمالية النّظم والتأليف.

يشمل التحوّل الأخير المَضمون القيَمي (Axiologique) لهذه الشواهد، فقد كانت في السابق صادحة بالمُثُل العليا للجماعة، وإذا بها تُختزن في نظراتٍ متفرّقة عن المرأة والحرب والطبيعة، دون أيّ مَغزًى أخلاقيّ يساعد على الارتقاء بالضّمير في معارج الكمال. إذ تتغيّ نظرة سريعة على ما يُسمّى: «المحفوظات»، في مدارسنا الابتدائيّة، لنرى كيف حادت، طيلة القرن الأخير، من الإشادة بمكارم الأخلاق إلى وَصف الطّبيعة وتمجيد الوطن في أحسن الأحوال، وإلى مُجرّد مديحٍ للقائد المُبجّل في أسوئها.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

> عزوف واضح عن اعتبار الأدباء المُحدثين مرجعاً يُستدلّ به
>
> من المعجميين العرب الحديثين مَن اختار حذف الشواهد تماماً

نقش طباعي لأوغستان فرانسوا لوميتر، 1840 (Getty)

مرآة للثقافة

تُعد الشّواهد علامات دالّة ومرآة للاختيارات العميقة للثقافة العربيّة، من جهة الشكل الاسلوبيّ ظاهرًا، ومن جهة التمثيل الحضاري للقِيَم والمبادئ التي تُحرّك تاريخَ العرب. ويعبّر غيابها اليوم عن ضمور منظومة قيَم واضحة المعالم، بل عن أزمة في بناء التوجّهات الكبرى للأمّة واقتصارها على امثلة شعبيّة اضناها البلى او اقتباس المقولات من غيرنا او تغييبها قصدًا. وفي كلّ الحالات تبدو العودة لهذه المختارات ضرورةً.

يوميات

عندما يغفو الاقتصاد تصحو القصيدة

لا يستحقّ ماركس أن نسخر منه

عندما تفشل السياسة فإنّ الشعر يقوم بالمهمّة، إيثاريا. فهو بطبعه شيوعي ومشاعي وفوق كلّ شيء. هكذا سيتشارك الناس من طبقات مختلفة السلالم نفسها

باسم النبريص

يجيء اللاجئون إلى بلجيكا، مع مثلهم الشعبي: «جاور السعيد، تسعد»: بهذا الوهم: في الشمال، هناك امتياز. في الجنوب، ضعف. فلا يجدون إلّا ضعفهم وهوانهم على الأثرياء الفلمنكيين.

ففي هذا النوع من رأس المال، تكون القوّة التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية أكبر، بسبب الوصول المستمرّ للزوّار والعاملين، وكثيرٌ منهم من ذوي المؤهّلات العالية، يبحثون عن فرص في الشركات الكبيرة.

لقد انتهى زمن الحقّ في المدينة، ذاك الذي يتحدّث عن الأبعاد التي تجعل من الممكن عيش حياة كريمة لسكّان المدن. وبالتالي انتهى زمن الحلم بمكان في العالم، ويكون مدينياً، بالنسبة لغالب اللاجئين. ذلك أن عدم الاستقرار له عنصر أساسي، يتمثّل في عدم امتلاك أبسط سبل العيش، مثل رغد المسكن.

ماذا بعدُ يمكن القيام به للتخفيف من حدة الفصل؟ أظن، وأغلب الظنّ شعرٌ، أنه ما من سبيل سوى كتابة القصائد الحديثة، ولكن بنوايا قديمة: الرثاء والهجاء!

ولمّا كانت هناك حاجة إلى سياسات في الشعر، لا يمكن أن تكون محلّية فحسب، بل يجب أن تكون ذات طابع فوق محلي ومستعرض، فلا بد من الشعر إذن، ليس فقط لتحسين الأماكن العامة وإمكانية الوصول إليها، في الحلم، ولكن لجميع مجالات حياة السكّان. من بين الحلول المقدّمة، الاستثمار في التعليم والنقل العام والحراك الاجتماعي والعمران، وتنظيم سوق الإسكان في المناطق التي تعاني من ضغوط أسعار الإيجارات غير المعقولة، وزيادة الإسكان الاجتماعي، وقبل كلّ شيء، مزجها في المدينة دون إنشاء أحياء معزولة.

وبهذا المعنى، عندما يعجز الاقتصاد، فإنّ الشعر يندلع ويقوم بالمهمّة، إيثارياً، فهو بطبعه شيوعي ومشاعي وفوق كلّ شيء، إيثاري بامتياز. وبهذه الطريقة، سيتشارك الناس من طبقات مختلفة السلالم ويتعاطفون.

■■■

في جميع الأحوال، لا يستحقّ كارل ماركس أن نسخر منه. كيف يمكن السخرية من اقتصادي الفقراء الأول؟ من كاتب أصحّ سيناريو للتاريخ البشري في الأزمنة الحديثة؟ كانت تصحّ السخرية لو كان الرجل نبياً مسيانياً، أو حتى ماركسياً. أعرف: لا يفعل ذلك سوى يمينيين، نخبة الأثرياء وحثالة البشر من مُغيّبي الوعي والضمير والإحساس بعذاب الناس. الإمبراطوريون والإمبرياليون والرأسماليون عابدو القرش، وأتباعهم، وأتباع أتباعهم. ماركس كان أكبر الضدّ وأكبر النقض قبالة أشلاء الحياة، وأشلاء البشر. وها هو، بعد وفاته بـ138 سنة، يتحقّق غالب ما قاله. وها نحن، جميع ساكنة الكوكب المقهور، نخبّ جميعاً في أوحال منافي الأوطان، ومنافي المنافي، على أمل وحيد: أن نبني من تلك الأشلاء، حياةً كاملة هنا، فلا تنقص عضواً. إنّما هيهات!

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

> انتهى زمن الحقّ في المدينة وحُلم اللاجئين بمسكنٍ في العالم

نصب لراس كارل ماركس في مدينة شيمنيتز الألمانية، للنحّات الروسي ليف كربك، 1975 (Getty)

مقتطف

في يومٍ ما كانت الإمبراطورية كلّها هادئة

أيام السلطان عبد الحميد الأخيرة

في ذاك الزمان لم تكن الامور خطيرة مثل اليوم. كنتُ مسيطراً على الامور ولم يكن هناك ضرر كبير. لكنّ الأيام المخيفة اوشكت على المجيء

ناهد سرّي اوريك

على طريقة تحية الملوك في القصور الغربية، انحنى الصدر الأعظم توفيق باشا كثيراً وهو يؤدي التحية للسلطان عبد الحميد، رغم رعايته لآداب القصر العثماني، حيث عمل أحمد توفيق باشا كسفير سابق للندن ووزير سابق للخارجية أيضاً. وبعد التحية أشار له السلطان على الكرسي الذي سيجلس عليه. كان الباشا واضعاً يداً على الأخرى فوق صدره وانتظر أوامر السلطان.

قال السلطان عبد الحميد مجاملاً:

- «كيف الأخبار يا باشا؟».

بدأ الباشا في الحديث عن الأوضاع؛ فقد كانت إسطنبول في حالتها الطبيعية، والجيش الأول يحافظ على النظام في العاصمة، وتناقش المسائل في البرلمان بهدوء، وقد جهز مجلس الوكلاء برنامجاً قصيراً، وإذا وافق السلطان على هذا البرنامج فسوف يقرأه الصدر الأعظم غداً على مجلس الوكلاء. أما عن الأرياف، فكانت آمنة والأخبار التي تأتي من أضنة جيدة. وقد أنهى الباشا حديثه بأن كل شيء على ما يرام.

استمع السلطان عبد الحميد إلى كلام الصدر الأعظم بعناية ولم يقاطعه على الإطلاق، وكان رأسه منحنياً. وبعد أن سكت توفيق باشا، رفع السلطان رأسه ومدّ يده، وأخذ البرنامج الذي تحدث عنه الباشا وبدأ في قراءته ببطء. إلا أن البرنامج كان قصيراً للغاية وانتهى من قراءته سريعاً.

قال السلطان عبد الحميد بأداء كأنه لم يعجبه هذا البرنامج:

- «مناسب».

وبعد أن أعاد الورقة إلى الباشا، حدّق فيه بعينين زرقاوين داكنتين وقال:

- «قبل قليل لخّصت كل شيء بشكل جيد. ولم يكن هناك ما يدعو للقلق في العاصمة وبكل الأناضول وولايات العرب. ولكن بدأ الغليان في ثلاث ولايات بلقانيّة. والذين هربوا من إسطنبول كالأبطال ذهبوا إلى سلانيك. وأنور بك وحافظ حقي بك وفتحي بك، الذين كانوا تابعين لسفارات برلين وفيينا وباريس، تركوا وظائفهم واتجهوا إلى سيلانيك ليصيروا أبطالاً للحرية. يريدون أن يلتحقوا بالجيش الذي سيأتي إلى إسطنبول ليكتسبوا شهرة جديدة. ومحمود شوكت باشا قائد الجيش الثالث أنا الذي ربيته، ورفعتُه إلى أعلى المناصب، وعيّنتُه والياً على ولاية مهمة مثل كوسوفا، ويجب أن يضغط على سيلانيك وما حولها. إلا أننا رأينا في الأحداث الأخيرة أنه يجب ألا نثق في صداقاتنا. على الأرجح، لقد بدأ الغليان في سيلانيك ومانستر، وجهزوا القوات للمجيء لإسطنبول. ويوجد في هذه القوات من كل الأعراق والأديان، ولن يكون محمود شوكت باشا هو رئيس تلك القوات بالتأكيد، ولكن هل سيمنع هذه القوات من التقدّم أم لا؟ وحتى إذا أراد ذلك فهل تكفي إرادته؟».

قال عبد الحميد ذلك بأداء طبيعي وهادئ، فقط كان من وقت لآخر يأتي وكأنه يستهزئ. بعد ذلك سكت السلطان، وضرب بأصابع يده اليسرى الطويلة على الطاولة، ونظر للصدر الأعظم الذي كان مندهشاً. كان بالتأكيد يفكر: «عندما كنتَ قبل 13 عاماً ناظراً للخارجية، كنتَ تعرف مني بعض الأحداث السياسية، وكنتَ تندهش. ولكن في ذاك الزمان لم تكن الأمور خطيرة مثل اليوم. كنتُ وقتها مسيطراً على الأمور، ولم يكن هناك ضرر كبير ألا تعرف بعض الأشياء آنذاك، لكن الأيام الخطيرة والمخيفة أوشكت على المجيء، وأنت نائم بهذا الشكل».

> ذهب السلطان لمشاهدة الطيور والتوقّف عن التفكير بأيّ شيء

لم يجرؤ توفيق باشا على أن يسأل السلطان: «ومن أين عرفت هذه المعلومات، وما هي مصادرك؟».

كان توفيق باشا يفكر في أن السلطان عبد الحميد في غير الأوقات التي يتعلق فيها بوهم مقتله أو الاستخبارات المضحكة، فإنه كان يفكر بشكل معقول، ويصدق الأشياء الحقيقية ولا يُشك في كلامه. ووفقاً لما قاله السلطان فيجب إيقاف القوات التي اجتمعت في سيلانيك ومانستر.

(ترجمة عن التركية: أحمد زكريا
وملاك دينيز أوزدمير. والنص المقتطف هنا فصلٌ من رواية أوريك «أيام السلطان عبد الحميد الأخيرة» الصادرة أخيراً بالعربية)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

السلطان عبد الحميد في بورتريه منشور عام 1908 في جريدة «ليتوسترا تسيونه إيتاليانا» (Getty)

فعاليات

يقدّم عند الثامنة من مساء الأربعاء المقبل في «ساحة روابط للفنون» بالقاهرة عرض **التي سكنت البيت قبلي** للمخرج الفرنسي **هنري جول جوليان** ضمن الدورة التاسعة من «مهرجان وسط البلد للفنون المعاصرة». العرض مقتبس عن قصيدة للشاعرة السورية **رشا عمران**، ويجمع بين أداء **ناندا محمد** وغناء **إيزابيل دوتوا**.

تنظّم «جامعة حمد بن خليفة» بالدوحة ندوة عند السادسة من مساء الأربعاء المقبل لمناقشة كتاب «**مستقبل علوم السياسات العامة**» الذي حرّره **أنيس بن بريك** و**ليزلي بال**. يشارك في الندوة التي تتناول الفرق بين الممارسة والتنظير في السياسات العامة، محرّرا الكتاب والباحثون **كريس هارتلي**، و**نيهيت غويال**، و**علا الطلباوي**، و**سريجا ناير**، و**أندرياس ريشكمر**، و**داريل جارفيس**.

حتى مساء غد، يتواصل في غاليري «تشيزنهال» بلندن معرض الفنان الإيراني **عباس أخافان** تحت عنوان **نهاية المشهد: تنويعات على الحماقة**، والذي افتتح في الرابع عشر من آب/ أغسطس الماضي، ويضمّ عملاً تركيبياً يعبّر عن فكرة إعادة إحياء لأنقاض مدينة تدمر الأثرية في سورية وسط تلاعب الشعارات السياسية.

ينطلق عند الثالثة من عصر السبت المقبل في «مجمع النقابات المهنية» بمدينة أربد الأردنية معرض كتاب بعنوان **أربد تقرأ** بتنظيم من **بسطة شادي للكتب**. يضمّ المعرض 20 ألف عنوان بين إصدارات جديدة ومستعملة في حقول تشمل الرواية والشعر والفلسفة والتاريخ وأدب الأطفال، إلى جانب المخطوطات القديمة.